إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الثالثة – العدد التاسع – ربيع ۱۳۹۲ش/ آذار ۲۰۱۳م
صص ۸۸ ـ ٦٥

العربية ومكانتها بين اللغات الساميَّة؛ دراسة وتقويم

محمدصالح شريف عسكرى*

الملخص

يتناول هذا المقال قصدية اختيار اللغة العربية، باعتبارها أفضل اللغات الحية، وأكمل اللغات االســاميَّة، لتبليغ رســالة الإســلام، وتنزيل كتاب الله العزيز، بهذه اللغة، من خلال اســتعراض آراء علماء اللغة، فى اللغات الســامية، وفروعها، وموطن شعوبها، والأطــوار التى مرت بها هذه اللغات، من ضعــف وقوة، والعلاقات التى تربط بعضها ببعــض، ومــا بقى منها قائماً، حــتى الآن، وما اندثر، كما يتحــدث المقال، بمقدار ما يتسع له المجال، عن ما يميز العربية عن الساميات، فى الأصول والاشتقاقات وتنوع المفردات، وطرائق الكلام، وأدوات التعبير عن ألطف الأمور وأدق القضايا؛ للوصول إلى بيان تفوق العربية علي غيرها بعد أن أصبحت أكمل أخواتها الســاميَّة مضموناً، وأقدرها أداءً للمعانى؛ الأمر الذى جعلها أهلاً لاحتضان كتاب الله العزيز، وكلام نبيه الكريم(ص)، فنالت بهذه المكانة المتميزة من التشريف والشأن مالم تنله لغة أخري من لغات البشر. كما حاول المقال أن يجعل القارئ يدرک من ثنايا البحث، بعد مشاهدة انحسار غير العربية، وبقاء الأخيرة؛ أن اختيار أكمل اللغات، أى العربية، لإبلاغ أكمل الرسالات لم يكن عملاً اعتباطياً، ودون قصد من الشارع الحكيم.

الكلمات الدليلية: قصدية اللغة، اللغة العربية، إمتياز العربية، الساميَّة.

---

*. أستاذ مشارک فى جامعة الخوارزمى، طهران، إيران.
Ms_shaskari@hotmail.com
تاريخ الوصول: ۱۳۹۲/۳/۲۰ش
تاريخ القبول: ۱۳۹۲/٤/۱۰ش

المقدمة

تنتمـــى اللغـــة العربية، علي رأى علمـــاء اللغة المعاصرين، لمجموعـــة من اللغات، التى أطلقوا عليها اســـم اللغات الســـاميَّة، تعويلاً علي وجود خصائص مشـــتركة، بين هذه اللغات، ســـوغت للعلماء تصنيفها فى أســـرة لغوية واحدة. وقد تواصل الحديث، عن هذه المجموعة، فى الدراســـات الحديثة، خاصة الســـاميَّة منها، وتعدَّد القول فيها، وتشـــعَّب الكلامُ حول حقيقتها وموطنها وشـــعوبها ولغاتها، وموقـــع العربية منها. وقد أدلى كلٌّ باحث من الشـــرقيين والغربيـــين، بدلوه فى هذا المضمار، وانتصر لوجهة، دون أخري، فى ســـجال صعب، وتقابل وتخبط واضطراب فى الآراء. غير أنَّ الذى يلاحظه المتتبع لأهم المصادر التى تناولت الحديث عن اللغات الســـاميَّة، منذ الدراســـات التى نشرها الغربيون، أمثال: جويدى، نولدكه وولفنسون أو بروكلمان وموسكاتى، وغيرهم من الباحثين الغربيين، أو الشـــرقيين: أمثال لويس عوض، وجرجى زيدان، وعلى عبد الواحد وافى، وغازى طليمات وحسن ظاظا أو غيرهم فى مؤلفاتهم التى وردت بعضها فى مســـرد المصادر، يلاحـــظ المتتبع أنَّ هؤلاء جميعا لم يتناولـــوا موضوع اكتمال اللغة العربية وامتيازها علي ســـائر أخواتها الســـامية، ولم يطرقوا هذا الهدف؛ ولم يصرحوا – عـــن قصد أو دون قصد – بمـــا تمتاز به اللغة العربية علي أخواتها الســـاميَّات، وما نجـــم عن امتياز العربية وتطورها واكتمالها، من مقدرة فائقة علي أداء المعانى والتعبير عن خلجات النفس الإنســـانية، وحاجات الإنسان: الفكرية والعاطفية؛ والتى كان من ثمارها، تشـــرفها باحتضان القرآن الكريم الذى نزل بهذه اللغة، وتسنمها أرقي مراتب الكمـــال، وقد حاول هذا المقال أن يطرق هذا الموضوع ويعالجه بما وســـعه من الأدلة والأقوال المتناثرة فى مضانها، وبمقدار ما سمحت به مســـاحة المقال؛ تعويلاً علي المنهج التاريخـــى، والواقع الفعلى للعربيـــة وأخواتها، وليفتح بذلك آفاق القول؛ لدراســـات لاحقةٍ، أكثر ســـعة وتفصيلاً؛ تأسيساً علي أنَّ نزول أعظم كتاب سماوى، وإرسال خاتم الرســـل (ص) بهذه اللغة، مبلغاً ومبشـــراً ونذيراً، لم يكن عملـــاً اعتباطياً، أو ارتجالياً، وأنَّ قصدية هذا الاختيار لا يبعد ان يكون أحد أوجه إعجاز كتاب الله العزيز. وهذه هى الفرضية التى حاول المقال إثباتها.

اللغات الساميَّة: تعريف وتأريخ

تعريفها

تطلق "اللغات الساميَّة" علي جملة من اللغات التى كانت شائعة منذ أزمان بعيدة فى بلاد آسيا وأفريقيا، سواء منها ما عفت آثاره، كالأكادية (الآشورية- البابلية) والسبئية وغيرهما، أو ما لايزال باقياً إلى الآن، كالعربية، والعبرية، والسريانية. (ولفنسون، لاتا: ٩؛ نولدكه، ١٩٦٤م: ٨؛ موسكاتى وآخرون،١٩٩٣م: ١٣)

مصطلح الساميَّة

وأول من استعمل هذا الاصطلاح، هو العالم النمساوى شلوتسر Schlozer فى أبحاثه، وتحقيقاته فى تاريخ الأمم الغابرة سنة ١٧٨١م. (نولدكه، ١٩٦٤م: ٨؛ ولنفسون، لاتا: ٩؛ بروكلمان، ١٩٧٧م: ١١)، اعتماداً علي جدول تقسيم الشعوب، الوارد فى التوراة. إذ جاء فيه: «وهذه مواليد بنى سام وحام ويافث و وِلدَ لهم بنون، بعد الطوفان ... وسام أبو كل بنى عابر، أخو يافث الكبير، وِلدَ له أيضاً بنون. بنو سام، عيلام، وآشور، وأرفكشاد، ولود وآرام.» (الكتاب المقدس، ١٩٠٧م: سفر التكوين/الاصحاح العاشر: ١٦)

أمَّا التأريخ

فهذا الجدول - حسب رأى علماء اللغة - أقدم تقسيم عن أنساب الأمم الساميَّة، وهو كما يبدو يقسم الأسرة البشرية إلى سام، وحام، ويافث. (ولنفسون، لاتا:١٠؛ بروكلمان، ١٩٧٧م: ١١)

ويفترض هذا التقسيم أنَّ أبناء سام انتشروا فى الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، أمَّا أبناء حام فهم أصل المتحدثين باللغات الإفريقية، وأمَّا أبناء يافث فهم أصل من تحدَّث بعدد من اللغات فى أوربا وآسيا. وهذا التصنيف الأساسى لم يكن يحمل فى طياته أى هرمية أو تقابل بين اللغات، فقد كانت المسافة بينها جنينية، كالمسافة بين الأقارب. (فرستيغ، ٢٠٠٣م: ١٤)

ومن العلماء، من خالف هذه التسمية،كما خالف إدراج بعض الشعوب فى هذا الجدول، ذلک لأنَّ العلم الحديث، يفهم منها الآن، شيئاً يختلف إلى حد ما، عمَّا فهمه

جدول الشـعوب فى التوراة؛ لأنَّه بنى تقسيمه علي اعتبارات سياسية، وحدود جغرافية فحسب؛ ولذلک جعل العيلاميين Elymeens، واللوديين Lydiens من أبناء سام؛ لأنهما كانا من رعايا الدولة الآشـورية، فى حين لا توجد بين هذين الشعبين قرابة من ناحية، كمـا أنـه ليس بينها وبين الآشـوريين قرابة من ناحية أخري. كمـا جعل الفينقيين من أبناء حام؛ بسبب صلاتهم السياسية بالمصريين، علي الرغم من أنهم أقرب الشعوب إلى العبريين، (عبد التواب، ١٩٩٩م: ٢٥) كما لم يقدم لنا مؤلف جدول الشـعوب، حسب - سفرالتكوين، الاصحاح/١٠- صورة واضحة عن العلاقات بين شعوب جنوبى الجزيرة العربية وشعوب الحبشة.

وخالف هذا التقسيم أيضاً، نخبة من الغربيين، أمثال تيودور نولدكه (اللغات السامية، ١٩٦٤م: ٨)، وكارل هيكر "مونستر"، تعويلا علي ما جاء فى الاصحاح العاشر، (ص١٦) فمـا بعده، وقـال: «والعرب أنفسـهم لم يُذكروا علي وجه التحديـد، ولكن ذكرت مثلاً الأقاليم العربية الجنوبية، مثل حضرموت وسـبأ.» (فيشـر، ٢٠٠٢م: ٢١،٤٤-٤٥)، كما خالف، هذا التقسـيم نخبة من الشـرقيين، أمثال عبد الواحد وافى، (فقه اللغة، لاتا: ٢)، وكمال ربحى. (اللغة العبرية، ١٩٦٣م: ٦-٧)

ويلاحـظ الباحث، من خلال تضارب الآراء واختـلاف النظرات، أنَّ التخبط يلف مسـألة تقسيم الشـعوب السـاميَّة، فأقدم المصادر عند الغربيين هو التوراة لا ينجو من النقد والتشـكيک، وكذلک الآرء التى اسـتخلصت من المصادر الأخري، لم تجد القبول المطلـق. ولا زال البحـث فى هذا المضمـار، وغيره مما يرتبط بالتاريـخ المغرق بالقدم، بحاجة ماسـة للتنقيب والسبر الدقيق. ولا يزال السجال الحاد قائماً بين فرضيتين، تري إحداهما: أنَّ التقارب التاريخى بين الشـعوب، يمكن الكشـف عنه، عن طريق العواطف والمشـاعر والميول المختلفة فى العلاقات والمأكل والمشـرب، خاصة بين الشـعوب التى تسـكن فى إقليم واحد، ومناطق متقاربة، بينما تري الأخري، أنَّ التقارب التاريخى بين الشعوب، يمكن الكشـف عنه، من خلال لغات الشعوب، وما تحملها مفرداتها وأساليب كلامها من تشابه واختلاف، وقد عنى بهذه الفرضية الباحثون فى مجال فقه اللغة المقارن. ويبدو من خلال الأبحاث الميدانية اللغوية فى بلاد آسيا وغيرها، ومن خلال الدراسات

المقارنة، أنَّ أنصار الفرضية الثانية استطاعوا أنْ يحرزوا شيئاً من التقدم. (للتوسع: ظاظا، ١٩٩٠م: ١٠؛ والسامرائى، ١٩٨٥م: ٩)

الساميَّة وعلماء العربية

ومـن المعلوم، أنَّ الصلات القائمة، بين اللغات السـاميَّة المختلفـة، من جهة واللغة العربيـة من جهة أخري، كانت معروفة، قبل أيام "شلوتسـر" بزمن طويل، عند علماء العربية، أمثال الخليل ابن أحمد الفراهيدى؛ فقد أشـار الخليل فى كتابه العين إلى العلاقة بين الكنعانية والعربية وقال: «وكنعان بن سـام بن نوح، إليه يُنسب الكنعانيون، وكانوا يتكلموك بلغة تقارب العربية.» (١٤٠٥ق: ٢٠٥/١) وأوضح ابن حزم الأندلسى، أنَّ من تدبَّر العربيَّة والعبريَّة والسـريانيَّة، أيقـن أنَّ اختلافها، إنما هو من تبديل ألفاظ الناس، علـي طول الأزمان واختـلاف البلدان ومجـاورة الأمم، وإنَّها لغـة واحدة فى الأصل (الإحـكام فى أصول الأحكام، ١٣٤٥ق: ٣/١)، كمـا اهتدي إلى ذلك كثير من علماء العربية المعاصرين. (السامرائى، ١٩٨٥م: ١٥)

ومجموعة اللغات السـاميَّة نفسـها، لم تكن قد تحدَّدت، وتميَّزت عند قدامي المحققين، بأنها سـاميَّة، وقدكان يشـار إلى هذه اللغات، كغيرها من لغات آسيا، علي أنَّها، بوجه عام، لغات شرقية. (موسكاتى وآخرون، ١٩٩٣م: ١٤)

وإذا كانت الصلات بين هذه الشـعوب قد تبيَّنت، عند القدامي من علماء المسلمين، وأصبحـت أكثر وضوحاً عند المعاصرين، فما السـرُّ وراء هذه الصـلات، وما العلة فى التداخل الموجود بين لغات شـعوبها؟ يري الباحث أنَّ حديث المواطن الآتى، يكشـف جانباً من السؤال، فإلى ذلك:

موطن اللغات الساميَّة

والمناطق التى انتشـرت فيها اللغات السـاميَّة، خلال الأزمنة القديمة، مِنْ بلاد آسيا الغربية (من الشرق إلى الغرب)، كما حدَّدها علماء الساميات، هى الآتية:

«مـا بين النهرين Mesopotamia، وسورية–فلسـطين Syria-Palestine، وشـبه الجزيـرة العربيـة Arabia. ... وأثيوبيةEthiopia ، فيؤلف ما بين النهرين، وسـورية – فلسـطين، والجزيرة العربية وأثيوبية، لذلک، موطن اللغات السـاميَّة القديم. ولم تنتشـر

وراء هذه المنطقة، إلا نتيجة تطورات ثانوية، كالهجرة والاستيطان Colonization، أو الفتح Conquest.» (السابق، أيضاً: فرستيغ، ۲۰۰۳م: ۲۱)

وفى أقصي الغرب من القارة الآسيوية، الذى يسمي أحياناً بالشرق الأدنى، وتساهلاً بالشرق الأوسط، عاش أقوامٌ تتقاربُ لغاتهم، وقامت لهم حضارات متعاصرة، أو متعاقبة، هم الذين أطلق عليهم اسم الساميين. (ظاظا، ۱۹۹۰م: ٥)

ويطلق الآن لقب الساميين، فى الدراسات الساميَّة، علي الشعوب الآرامية، والكنعانية (الفنيقية والعبرية)، والعربية، اليمنية، والبابلية– الآشورية، وما انحدر منها من شعوب. (وافى، لاتا: ۲–۳)

ولاتوجد كتلة من الأمم، ترتبط لغاتها، بعضها ببعض، كالارتباط الذى كان بين اللغات الساميَّة. (ولنفسون، لاتا: ۱۰؛ موسكاتى، لاتا: ٤٤)

ولمَّا تبيَّن لعلماء اللغة، وجود هذا الارتباط، وهذه العلاقة المتينة، بين لغات الشعوب الساميَّة، ساقتهم هذه العلاقة، إلى الاعتقاد بوجود أصل واحد، لجميع اللغات الساميَّه، وأنَّ هذه اللغه الأصلية، كانت منتشرة فى منطقة جغرافية واسعة، وأنَّ لهجات مختلفه، نجمت من هذه اللغة الأصلية، غير أنَّها لم تكن ظاهرة ومخالفة للأصل، إلا بعد انتشار قبائل هذه الأسرة الساميَّة الكبرى فى مناطق شتَّى، وهجرت بعضها من موطنها الأصلى، ثم بَدَتْ تاثيرات البيئة الجديدة فى الألسنة، فاخذت تبرز وتنمو حتى أصبحت تلك اللهجات مغايرة، كأنَّ كلاً منها لغة مستقلة. (ولنفسون، لاتا: ۱۱)

موطن الساميين

وتسائل العلماء، إذا كان لهذه الشعوب موطن أصلى، انتشرت منه، فأين كان هذا الموطن الأصلى. (بروكلمان، ۱۹۷۷م: ۱۲؛ ولفنسون، لاتا: ۱۱)

إنَّ المهد الجغرافى الأول للغة الساميَّة، بحثٌ حيَّر العلماء. (ظاظا، ۱۹۹۰م : ۱۱)، وقد ذهبوا فيه مذاهب شتَّى، ولم يصلوا بعدُ بشأنه إلى رأى يقينى. وأهم ما قيل بهذا الصدد يندرج فى ستة آراء:

۱– أرض الحبشة: يذهب بعض العلماء، الى أنَّ الموطن الأصلى للساميين، هى بلاد الحبشة، ومنها نزحوا إلى القسم الجنوبى، ببلاد العرب عن طريق باب المندب، ومن هذا

القسم انتشروا فى مختلف أنحاء الجزيرة العربية. وصاحب هذا الرأى المستشرق نولدكه، الذى يقول: «والقرابة الموجودة بين اللغتين: الساميَّة والحاميَّة، تدعو إلى الاعتقاد بأنَّ الموطن الأصلى للساميين، كان فى إفريقيا.» (اللغات السامية، ١٩٦٤م: ٢١-٢٢) غير أنه يعود فيذكر، أنَّ نظريته تلك، ليست إلا فرضاً قابلا للنقض. وخالف هذا الرأى وافى (فقه، لاتا: ٦) وآخرون قائلين: «كيف اختفت من إفريقيا إذن، جميع اللغات الساميَّة، بحيث لا تعود إلى الظهور، إلا فى بعض المناطق الفينيقية، وبعد الفتح الإسلامى فى القرن السابع الميلادى؟» (ظاظا، ١٩٩٠م: ١٤؛ أيضاً: عبد التواب، ١٩٩٩م: ٣٨)

٢- شمال أفريقيا: ويذهب آخرون، إلى أنَّ الموطن الأول للساميين، كان شمال إفريقيا، ومنه نزحوا إلى آسيا عن طريق برزخ السويس. (وافى، لاتا: ٦)

٣- حدود أرمينيا وكردستان: ويذهب القائلون بهذا الرأى إلى أنَّ الموطن الأصلى يقع علي حدود أرمينيا وكردستان.

ويعتمد أصحاب هذا الرأى علي أدلة لغوية ودينية توراتية. منهم المستشرق الفرنسى: (رينان) وغيره، اعتماداً علي ما جاء فى سفر التكوين (الاصحاح الثامن/٤) من أن سفينة نوح رَسَتْ علي جبل قريب من ناحية أرفكشاد، وهى تقع علي حدود أرمينيا وكردستان. (نولدكه، ١٩٦٤م: ٢٢؛ أيضاً: الحموى الرومى، لاتا: ٠١/١٦)

ويترتب علي هذا الرأى - حسب رأى الباحثين- أن تكون مرتفعات كردستان، مهداً للإنسانية كلها، لا للساميين وحدهم، حيث نزل من هذه السفينة فى هذا المكان المفترض: نوح وأبناؤه الثلاثة: سام وحام ويافث. (عبد التواب، ١٩٩٩م: ٣٩؛ ظاظا، ١٩٩٠م: ٩)

ويذهب نولدكه (اللغات الساميَّة، ١٩٦٤م: ٢٣) إلى أنه «رأى خيالى تماما»، هذا إلى أنه يتعارض تماماً مع رأى آخر، فى سفر التكوين (الاصحاح الحادى عشر/١) الذى يرجع إلى مصادر أخري، ويذكر أنَّ كلَّ الشعوب، ومن بينها الساميون أيضاً، قد انحدروا أصلا من بابل.

ويعتقد عالم اللغويات المصرى، الدكتورعلى عبد الواحد وافى (فقه، لاتا: ٦)، أنَّ الآراء الثلاثة السابقة هى أضعف الآراء، التى قيلت بهذا الصدد؛ إذ لم يقدم أصحابها بين يدى مذهبهم دليلاً يعتد به.

٤- جنوب العراق

تنقسم بلاد العراق، من الوجهة الجغرافية، إلى منطقة شمالية نجدية، ومنطقة جنوبية تهاميَّة، فأمَّا المنطقة الجنوبية، فكانت مسكونة، مِن أقدم الأزمنة التاريخية بقبائل سومرية، تضاربت الآراء حول زمن هجرتها إلى هذه المنطقة، ومواطنها الأولى. ويري بعض الباحثين، أنَّ العنصر السامى فى العراق كان موجوداً، قبل وصول السومريين إليه. (الأحمد، ١٩٧٥م: ٤١-٤٦)

وفى هذه المنطقة الجنوبية، من بلاد العراق، نشأت الحضارة السومرية، ونمتْ نمواً عظيماً، وامتد فيها العمران المزدهر، الذى كان بعد ذلك أساساً لحضارة القبائل الساميَّة، قبل الألف الثالث ق.م، وكونت مُلكا عظيما، فى منطقة بابل. (ولنفسون، لاتا: ٢٨؛ الأحمد، ١٩٧٥م: ٤٣- ٤٥، فما بعد)

أمَّا المنطقة الشمالية، فكانت موطن القبائل الآشورية. (موسكاتى، لاتا: ٦٩-٧١)، التى اتخذت مدينة أشور Assur قاعدة لدولتها.

وقد قال بهذا الرأى، إرنست رينان، وفرانسوا لنورمان، وفريتز هومل، وبيترز، كما كان من أوائل القائلين به، الإيطالى إغناطيوس جويدى، فى بحث نشره فى روما بعنوان "مهد الشعوب الساميَّة" سنة ١٨٧٨-١٨٧٩م. قال فيه:

«إن المهد الأصلى للأمم الساميَّة، كان فى نواحى جنوب العراق، علي نهر الفرات، وقد سرد عدداً من الكلمات المألوفة، فى جميع اللغات السامية عن العمران والحيوان والنبات، وقال إنَّ أول من استعملها، هى أمم تلك المنطقة، ثم أخذها عنهم جميع الساميين.» (ولفنسون، لاتا: ١١؛ ظاظا، ١٩٩٠م: ١٢)

وهذه الحجة كما تبدو لغوية، وقد رفضها نولدكه، وآخرون. (هلال، ٢٠٠٤م: ٦٧،٧٥؛ عبدالتواب، ١٩٩٩م: ٤١)

٥- بلاد كنعان، فى شمال سورية: وكانت تسمي فى النقوش القديمة، ببلاد آمورو. وذهب إلى هذا الرأى المستشرق الأمريكى كلاى، وغيره. ومن الأدلة التى قدمها أصحاب هذا الرأى، وجود مقاربة فكرية بين الأساطير العراقية، والأساطير الفينيقية، وأساطير الساميين، فى بلاد سورية. ومن الأدلة، أيضا، وجود مَدنيَّة سحيقة للساميين،

فى البلاد الســورية القديمة، علي حين أنَّ بلاد العــراق مثلاً، التى يري أصحاب المذهب الرابع أنَّها المهد الأول للســاميين، كان يســكنها من قبلهم الشعب السومرى، وكانت له فيها مدنية زاهرة قبل مدنيتهم، وقد نزحوا إليها، فى عصر كانت فيه بلاد ســوريا القديمة، آهلة بأمم ساميَّة، ذات مدنية عريقة. وخالف هذا الرأى عددٌ من الباحثين. (وافى، لاتا: ٧؛ ظاظاً، ١٩٩٠م: ١٤)

٦- جزيرة العرب

يري بعض العلماء، أنَّ المهد الأول للســاميين، كان القســم الجنوبى الغربى، من شبه جزيــرة العرب (بلاد الحجاز ونجد واليمن وما إلى ذلک). وقد مال إلى هذا الرأى عددٌ، من قدامي المستشرقين ومُحْدَثيهم، وعلي رأســهم العلامتان رينان الفرنسى، وولفنسون، وبروكلمان الألمانى، ويذهب بروكلمان إلى «أنَّ الجزيرة العربية هى المكان، الذى يصلح لأن يكون مهد الساميين الأول.» (فقه، ١٩٧٧م: ١٢) ويقول ولفنسون: «والذى يمكننا أن نجزم به هو أنَّ أكثر الحركات والهجرات عند أغلب الأُمم الساميَّة، التى علمنا أخبارها، وأسماءها، كانت من نزوح جموع ســاميَّة، من أرض الجزيرة، إلى بلدان المعمورة الدانية، والقاصيــة، فى عصور مختلفة، فأقدم هجرة ســاميَّة، اتجهت نحو بابــل كانت، من ناحية الجزيرة.» (تاريخ اللغات السامية، لاتا: ١٢-١٣)

ويعتقــد وافى، أنَّ هذا هو أصح الآراء وأقواها ســنداً، وأكثرها اتفاقاً، مع آثار هذه الأمم، وحقائق التاريخ؛ لوجود أدلة تاريخية، وجغرافية ـ ولغوية. (فقه، لاتا: ٧)

ووافق هذا المعتقد كلٌّ من، غازى مختار طليمات، (فى علم اللغه، ٢٠٠٠م: ٦٨-٦٩) وعالم الساميات، سبتينو موسكاتى (الحضارات الساميه القديمه، لاتا: ٤٩-٥٤)، وحسن ظاظا (الساميون ولغاتهم، ١٩٩٠م: ٨٧)، ورمضان عبد التواب. (فصول، ١٩٩٩م: ٤١)

تقسيم اللغات الساميَّة: (من الساميَّة إلى العربية)

يفترض الباحثون، من خلال الدراســات اللغوية المقارنة، والاكتشافات التى قاموا بها، أنَّه فى حوالى الألفية الثالثة، قبل الميلاد، حدث انفصال بين اللغات الساميَّة الشمالية الشــرقية (الأكدية، والتى تفرعت بعد ذلک بدورها لقســمين، هما البابلية والآشورية)، وباقى اللغات الســاميَّة، وفى حوالى الألفية الثانية، قبل الميلاد حدث انقســام آخر فى

المجموعة الغربية من اللغات الساميَّة، وكان الانقسام بين مجموعة الساميَّات الشمالية الغربية، والمجموعة الجنوبية الغربية. وفى حوالى الألفية الأولى، قبل الميلاد، انقسمت المجموعة الشمالية الغربية، إلى الكنعانية والآرامية، وانقسمت المجموعة الجنوبية الغربية، إلى العربية والعربية الجنوبية، والأثيوبية. ولكن الاكتشافات الحديثة، غيرت تلك الصورة تغييراً كبيراً، وخاصة اكتشاف المجموعة الأوجريتية (الأوغاريتية) فى عام ١٩٢٩م، والعبلية عام ١٩٧٤م، وكلتا اللغتين الآن تعتبر من المجموعة الشمالية الغربية. (فرستيغ، ٢٠٠٣م: ٢٤)

وطبيعة الاكتشافات الاوغاريتية التى حملت معلومات جديدة عن الحروف وأنواعها، والكلمات وتراكيبها، واللغة وأصولها، ساقت الباحثين إلى تكوين آراء جديدة حول تقسيمات اللغات، وموطنها.

فاللغات الساميَّة، وفقاً للاعتقاد السائد، تنقسم إلى ثلاثة فروع أساسيَّة هى: (١) اللغات الساميَّة الشمالية (ما بين النهرين). (٢) اللغات الساميَّة الشمالية الغربية (سورية- فلسطين). (٣) اللغات الساميَّة الجنوبية الغربية (أو الجنوبية) (الجزيرة العربية). (ولفنسون، لاتا: ٢٤)

أ- اللغات الساميَّة الشمالية الشرقية: ويطلق عليها المحدثون، من علماء اللغة اسم (اللغات الأكادية) نسبةً إلى أكَّاد Akkad، واشتق اسمها من مدينة "أكَّاد Akkad" التى بناها (سرجون، Sargon، ٢٣٥٠-٢٢٩٤ ق.م) فى الجزء الشمالى من أرض بابل، لتكون عاصمة لدولته، وهى أول دولة ساميَّة، شهدتها أرض الرافدين، أو كلدة كما يسميها الساميون، (وافى، لاتا: ٢٠) أو (اللغات البابلية-الآشورية) نسبة إلى منطقتى بابل وآشور. (الأنطاكى، لاتا: ٦٨)

تطلق جمهرة الباحثين، علي لهجات هاتين الطائفتين اسم (البابلية- الاشورية)، أو(اللهجات الأكدية)، وأحياناً، يكتفي بعض الباحثين بإطلاق التسمية المقصورة علي فريق، دون الآخر، فيُسَمُّون لهجاتها كلها: اللهجات البابلية، حين كانت الدولة البابلية مزدهرة (فى المدة ٣٦٠٠ ق.م -٢٠٠٠ ق.م) ويُسمُّونها (اللهجات الآشورية) حين كانت الدولة الآشورية مزدهرة (فى المدة من سنة ٢٠٠٠ ق.م-٥٠٠ ق.م). (هلال، ٢٠٠٤م: ١٠٠)

وحلت هذه اللغات[الأكادية]محل اللغة السومرية، التى اندثرت حوالى ٢٠٠٠ ق.م.

وكانــت لغة هؤلاء الأكاديين الســاميين النازحين، إلى هذه المنطقــة، خاضعة لنفوذ لغة الســومريين حتى حوالى ٢٠٠٠ ق.م، «فقد اقتبســوا عن الســومريين طائفة كبيرة من مفردات لغتهم.» (وافى، لاتا: ٢٥)، كما استخدموا خطهم، نحو ثلاثة آلاف سنة، علي أقل تقدير، أى إلى نحو قرن واحد، قبل الميلاد. (ولفنسون، لاتا: ٣٦؛ فيشر، ٢٠٠٢م: ٢٤)

وبعدها تميزت الأكدية، إلى البابلية، والآشورية:

البابلية: وهى لهجة الجزء الجنوبى من المنطقة، وتشتمل علي البابلية القديمة، (حوالى ٢٠٠٠ إلى ١٥٠٠ ق. م)، مع عدة اختلافات لهجية، والبابلية المتوســطة، (حوالى ١٥٠٠ أي ١٠٠٠ ق.م)، والبابلية الجديدة، (حوالى ١٠٠٠ ق.م إلى بدء العهد المسيحى). وأكثر البابلية حداثة، وتدعي البابلية المتأخرة، تبدأ من (حوالى ٦٠٠ ق.م). و تَتَّســم بوجود ألفاظ آرامية فيها.

أمَّا الآشورية، وهى لهجة الجزء الشمالى من المنطقة، وتشتمل علي الآشورية القديمة (حوالى ٢٠٠٠ ق.م إلى ١٥٠٠ ق.م)، والآشــورية المتوســطة (حوالى ١٥٠٠ ق.م إلى ١٠٠٠ ق.م)، والآشــورية الجديــدة (حــوالى ١٠٠٠ق.م إلى ٦٠٠ ق. م)، وقد تأثرت بالآرامية فى طورها الأخير. (وافى، لاتا: ٢٨-٢٩)

ب – الساميَّة الشمالية الغربية

ويحتــوى هذا الفرع من اللغات، علي لغات مشــكوك فيها، ولغــات جري التثبت منها، بوجه عام، طبقاً للنقوش التى اكتشــفت (من الألف الثانى قبل الميلاد). (موسكاتى وآخرون، ١٩٩٣م: ٢١-٢٢)، وتضم (الكنعانية والآرامية):

١ – اللغة الكنعانية وفروعها (Canaanite)

يطلــق لفظا كنعان والكنعانيين علي المنطقة السورية-الفلســطينية باســرها، وعلي ســكانها، كما تعــنى الكنعانية: المظاهــر اللغوية غير الآرامية، فى الارض الســورية-الفلسطينية، من نهاية الألف الثانى قبل الميلاد فما بعده. (موسكاتى، لاتا: ١١٤)

والكنعانيون طائفة سامية خرجت من الجزيرة العربية، واستوطنت الساحل الشمالى الشرقى للبحر الأبيض المتوسط، فى سورية وفلسطين .

ويقال: إنهم خرجوا من الجزيرة، قبل القرن السابع والعشرين، أو الخامس والعشرين،

قبل الميلاد، علي خلاف بين المؤرخين، وقد امتد نفوذهم إلى الساحل الشرقى للبحر الأبيض المتوسط، وأسسوا لهم مملكة زاهرة فى أرض كنعان، قبل أن ينزح الآراميون إليها بأكثر من ألف سنة. (هلال، ٢٠٠٤م: ١٠٢)

وتقسم الكنعانية إلى شمالية، وجنوبية:

أ – الكنعانية الشمالية، وتمثلها اللغة الأوغاريتية، وهى لغة النصوص المكتشفة عام ١٩٢٩م، وعام ١٩٥٣م فى منطقة أوغاريت(Ugarit)شمالى اللاذقية قرب (رأس شمرة، أو شمرا حالياً). (عبدالتواب، ١٩٩٩م: ٢٧؛ موسكاتى، لاتا: ١١٦)، علي الساحل السورى للبحر المتوسط، من القرن الرابع عشر، و الخامس عشر، قبل الميلاد.

ولغة هذه النصوص المكتشفة تشابه اللغة الأكادية، إذ كتبت بالخط المسمارى، الذى يسير علي النظام الأبجدى، خلافاً للأكادية، التى يسير فيها علي النظام المقطعى. (قدورة، ١٩٩٩م: ٥٩؛ الصالح، ١٩٧٦م: ٥٠)

وفى هذه المنطقة ظهرت الكتابة الأبجدية، فى الألف الثانى قبل الميلاد. (بيطار، ١٩٩٧م: ٣٩) وعنها أخذ العالم الكتابة الأبجدية. (الصالح، ١٩٧٦م: ٥٠)

ب – الكنعانية الجنوبية، وفروعها:

اللغة العبرية، وقد اختلف فى أصل اللغة العبرية، هل هى ساميَّة، أو لغة أخري، تأثرت بالفينيقية، أو أن لغتهم اندثرت، وحلَّ محلَّها اللسان الكنعانى، فهى تتفق معها(الفينيقية) فى معظم مظاهر الصوت، و أصول المفردات والقواعد. (هلال، ٢٠٠٤م: ١٠٩)

وعلي الرغم من تسميتها اللغة العبرية، فهى ليست لغة جميع العبريين، بل لغة فرع واحد من فروعهم، وهو فرع بنى إسرائيل. (ربحى، ١٩٦٣م: ٣٣)

وقد مرت العبرية بطورين:

الطور الأول: عصر قيام الدولة، حوالى القرن الثالث عشر ق.م، إلى أواخر القرن الرابع ق.م. وكانت العبرية فيها لغة حية، فى التخاطب، يتكلم بها العبريون ويكتبون، وهى العبرية القديمة.

ولهذا الطور مرحلتان:

المرحلة الأولى: منذ نشأتها إلى نفى بابل سنة ٥٨٦ ق.م. وتسمي، "العصر الذهبى للغة العبرية".

فبالنســبة للغة الخطاب، اتسع نفوذها وسلطانها، وبالنسبة للكتابة (ابتدأ من النصف الأخير من القرن التاسـع ق.م. حتى أوائل القرن السادس ق.م.). دُوِّن بها معظم أسفار العهد القديم.

والمرحلــة الثانيــة: تبدأ من نفى بابل ســنة ٥٨٦ ق.م، إلى أواخر القرن الرابع ق.م، وتسمي، "المرحلة الفضية للغة العبرية".

فبالنســبة للغة التخاطب فى هذه المرحلة: فقد أخذ شــأنها يضمحلُّ شيئا فشيئا، وبدأ النفــوذ الآرامى يغزوها فلم يمكنهم المحافظة عليها فى لغــة التخاطب؛ لأنَّ تيار الآرامية كان أقوي فتغلب علي العبرية، حتى حذفت من التخاطب نهائياً. وبالنسبة للتدوين ظلت العبرية مستخدمة، فكُتب بها بعض أسفار العهد القديم، كما دُوِّنت بها بعض الآثار الأدبية.

الطور الثانى: يبدأ منذ أواخر القرن الرابع ق. م، إلى الآن وله مرحلتان أيضاً:

المرحلة الأولى: منذ أواخر القرن الرابع ق.م، حتى أول العصور الوســطي، وتســمي العبرية –حينئذ– العبرية الربانية أو التلمودية. وفى هذه المدة لم تكن العبرية لغة محادثة، وإنَّما بقيت لغة كتابة، وتدوين فحسب.

والعبرية فى هذه المرحلة متاثرة كثيراً باللهجة الآرامية، وفيها آثارٌ من لغات الحثيين الهندية–الأوربية، (عَبُّودى، ١٩٩١م: ٣٤٣) وفيها كلمات كثيرة، من اليونانية، واللاتينية، والفارسية.

وقــد كتبت بها مؤلفــات فى مختلف الموضوعــات، ظهرت بين أواخــر القرن الأول الميلادى، ومنتصف القرن الثالث الميلادى.

ووضعت هذه الكتب فى مؤلف يســمَّي "المنشــا"، ومعناه الكتاب الثانى، بعد الكتاب الأول، هو العهد القديم، ومنه يفيد اليهود فى حياتهم الدينية.

المرحلة الثانية: منذ العصور الوسطي إلى الآن، وفيها تسمَّي، "العبرية الحديثة".

وفى هــذه المرحلة، تأثرت كثيراً باللغة العربية؛ لتأثر الكاتبين بها بالثقافة العربية، فى الشرق وفى الأندلس. (هلال، ٢٠٠٤م: ١١٢)

ومنذ أواخر القرن التاســع عشر، قوى اتجاه اليهود، فى أنحاء العالم، إلى إحياء اللغة العبرية، واســتخدامها فى ميادين الترجمة، والتأليف، والخطابــة، والأدب، والصحافة. (وافى، لاتا: ٥٠)

وقـد حاول اليهـود الأوربيون، من الألمان، والانجليز، والفرنسـيين، وغيرهم إعادة النطـق العبرى- من جديـد- ونقلوا عليها بعض صور النطـق الأوربى فخفَّفوا النطق، ببعـض أصوات الحلق، وأصوات الاطباق، فالصـاد- مثلا-أصبحت قريبة من الصوت Z فى الألمانيـة، وبدا تأثرها كثيراً بلغة "البيدش" وهى لهجة ألمانية، كان يتكلم بها يهود وسط أوربا وشرقها، ودخل كثير من الألفاظ، والتراكيب الأجنبية، إلى العبرية. (هلال، ۲۰۰٤م: ۱۱۲-۱۱۳؛ أيضاً: وافى، لاتا: ٤۹؛ نولدكه، ۱۹٦٤م: ۳۲-٤٦)

الفينيقية، وهى لغة الساحل السورى، والفلسطينى، واللبنانى. (هلال، ۲۰۰٤م: ۱۰٤)

وصلـت إلينا اللغة الفينيقية، عن طريق نقـوش قديمة، عثر عليها فى المواطن الأولى للفينقيين (صُور، صَيدا، جُبَيل Byblos ...)، وعُثر علي بعضها، فى مستعمراتهم، ومواطن نفوذهم، وخاصة فى جزر البحر الأبيض (قبرص وغيرها).

ووجه الشـبه، بين اللغة التى دُوِّنت بها هذه النقوش، واللغة العبرية قوية جداً، فيما يتعلق بأصول الكلمات، أى الأصوات الساكنة التى تتالف منها أصول المفردات.

وقد اسـتنبط العلماء من هذه النقوش، أنَّ مسـافة الخلف بين الفينيقية والعبرية، فى أصوات المد، كانت أوسع من مسافة الخلف بينها فى الأصوات الساكنة. وكذلک الشأن، فيمـا يتعلق بالقواعد، وخاصـة فى قواعد تركيب الجمل، فإنه يظهـر منها، أنَّ الفينيقية تختلف عن العبرية، فى هذه الناحية اختلافاً غير يسـير. فمن ذلک مثلا، أنها تسـتخدم فعلا مساعداً قبل الفعل المتحدث عنه؛ لتحديد زمنه وبيان استمراره، كما الشأن فى اللغة العربيـة (كان يضرب، كنا نضرب ... إلخ) وهذا الأسـلوب لا نظـير له فى اللغة العبرية. (وافى، لاتا: ۳۷)

ويظهر أنَّ الفينيقية كانت أطول عمراً من العبرية، ولكن من المقطوع، به أنها أخذت تتاثر بالآرامية منذ عهد بعيد، وأنَّه لم يأت القرن الأول، قبل الميلاد حتى كانت الآرامية، قد قضت عليها، كما قضت علي العبرية من قبل. (وافى، لاتا: ۳۹؛ بروكلمان، ۱۹۷۷م: ۲۱-۲۲)

ومن الفينيقية، تفرعت اللهجة المعروفة بالبونية "Puni"، التى تخص مدينة قرطاجنة [فى تونـس]، والبلاد المتاخمة لها، والمسـتعمرات الفينيقية، فى حوض البحر المتوسـط، بين القرنين التاسع والثانى ق.م. (قدورة، ۱۹۹۹م: ٦۱)

المؤابية Moabit، نسبة إلى بلاد مؤاب التى تقع فى الجنوب الشرقى من البحر الميت.

وتمثلها مجموعة هوامش مدونة، علي رسائل أكادية، أرسلها بعض أمراء فلسطين إلى حـكام مصر، ترجع نصوصها، إلى عهد امنحتب الثالث (١٤١٣-١٣٧٧ق.م)، وامنحتب الرابع (أحناتون) (١٣٧٧-١٣٥٨ق.م). (هلال، ٢٠٠٤م: ١٠٤)

وكذلـك يمثلها نقش (ميشـع)، مَلک مؤاب، وهو عبارة عـن نصب، عُثر عليه فى عام ١٨٦٨م، فى (ديبا) بأرض مؤاب. ويرجع تاريخه إلى سنة ٨٤٢ ق.م. (ولفنسون، لاتا: ٩٧)

ونقش ميشـع، يتفق فى معظم الخصائص، مع بقية اللهجات الكنعانية، (راجع ترجمة النقش: معن، ٢٠٠٠٢م: ١٤١)، وجعله بعض الباحثين، ممثلا للهجة مستقلة عن الفينيقية. (هلال، ٢٠٠٤م: ١٠٤)

٢ – الآرامية Aramaic

تؤلف الآرامية مجموعة لغوية مهمة، واسـعة الانتشـار، تأسيسـاً علي الدراسـات اللغوية المقارنة. ويرجع أقدمها إلى مطلع الألف الأول قبل الميلاد. (موسكاتی وآخرون، ١٩٩٣م: ٢٥) واختلطت باللغات المجاورة لها فى الشرق أى العراق، والغرب أى سوريا وفلسطين. (هلال، ٢٠٠٤م: ١١٥) «وإنْ كانت أقرب إلى اللغة العبرية-الفينيقية، إلا أنها انفصلت عنها تمام الانفصال... وقد اتسـعت لغة الآراميين شيئا فشيئا حتى احتلت كل سوريا، حتى الأجزاء التى كانت محتلة قديما بأقوام غير ساميين.» (نولدكه، ١٩٦٤م: ٤٧)

ولها مرحلة قديمة تمتد إلى القرن الأول قبل الميلاد، ومرحلة لاحقة تتفرع فيها فرعين: غربية، شرقية.

اللغات الآرامية القديمة، وهى لغة أكثر النقوش القديمة المسـتمدة، من (دمشق وحماة وأِرْبِد وآشور)، وتعود إلى ما بين القرنين العاشر والثامن قبل الميلاد. كما تضم الآرامية الكلاسـيكية والامبرطورية، وهى اللغة التى اسـتعملت، فى الامبراطورية الآشـورية، والبابلية، والفارسـية (من القرن السـابع إلى الرابع قبل الميلاد)، واستمرت فروعٌ لها فى الحقبة التى تلت ذلک. اعتماداً علي النقوش، التى اكتشفت فى ما بين النهرين، وفارس، والهند الغربية، والأناضول، وشـبه الجزيرة العربية، ومصر. وتضم أيضاً، آرامية الكتاب المقدس الموجودة فى أجزاء من العهد القديم. (موسكاتی وآخرون، ١٩٩٣م: ٢٥)

الآرامية الغربية، وتضم الآرامية النبطية، وهى لغة الأنباط، وهم سكان عرب(أصلاً) أقاموا دولة فى سـلع "البتراء" فى بادية شـرق الأردن، وفى (بُصْـرَي) باقليم حوران فى

جنوب سوريا (الحموی الرومی، لاتا: ١/٤٤١)، استمرت من القرن الأول قبل الميلاد، إلی القرن الثالث بعده. وسيطروا علي جنوب الشام، وشمال الجزيرة العربية (حول هجر / مدائن صالح). (موسكاتی وآخرون، ١٩٩٣م: ٢٦)

وتضم الآرامية التدمرية، وهی لغة سكان عرب (أصلاً) أقاموا دولة فی "تَدْمُر" فی شرق سوريا، ازدهرت، بين القرنين الأول، قبل الميلاد، والثالث بعده. والآرامية الفلسطينية-اليهودية، وهی لغة الحديث فی فلسطين، زمن المسيح(ع)، وخلال القرون المسيحية الأولی. والآرامية السامرية، وهی لغة الترجوم السامری (من المحتمل أنه من لغة القرن الرابع بعد الميلاد).

كما تضم الآرامية الفلسطينية النصرانية، وهی اللغة التی استعملها الملكيون، بين القرنين الخامس والثامن، بعد الميلاد، وقد كتبت بحروف سريانية.

وتضم أيضاً، بقايا الآرامية، يمكن سماعها اليوم فی قري (مَعْلُولَة، وجَبَعْدِين، وبَجْعا) فی جوار دمشق، وهی الآخذة بالانقراض. (موسكاتی وآخرون، ١٩٩٣م: ٢٧)

الآرامية الشرقية، وتضم اللغة السريانية، وهی آرامية قديمة، نشأت فی الإقليم الذی تقع فيه مدينة الرها "إديسا" عند الرومان، واسمها الحالی "أورفا"، فی جنوب شرق تركيا، وكانت لغة "الرَّها"، قبل المسيح(ع)، قد سميت آراميَّة، وبعد انتشار النصرانية سُميَّت بالسريانيَّة، وقد امتدت، من القرن الثالث إلی الثالث عشر بعد الميلاد، وإنْ كانت العربية حلَّت محلَّها، لغة التخاطب، فی أثناء الفتوح الإسلامية، فی القرن الثامن. وتضم أيضا، الآرامية البابلية، وهی لغة اليهود البابليين، كما تضم المندائية، وهی لغة طائفة الصابئة، من المندائيين الذين برزوا فيما بين النهرين، وتأثروا بالنطق الآشوری، وامتدت كتاباتهم، من القرن الثالث إلی الثامن بعد الميلاد. كذلك ضمت بقايا الآرامية الشرقية، ربَّما لا تزال حتی اليوم، فی جوار بحيرة أرميا، فی طور عبدين، وقرب الموصل. (السابق، ١٩٩٣م: ٢٧-٢٨)

وقد انتهت الآرامية، وانقرضت من لغة التخاطب، فی العراق بعد الفتح الإسلامی فی القرن السابع الميلادی، وإنْ بقيت السريانية لغة كتابة، وأدب، ودين إلی أواخر القرن الرابع عشر الميلادی. (السامرائی، ١٩٨٥م: ٨)

كذلك انقرضت الآرامية، فی معظم مناطق سوريا، ولبنان، وفلسطين بعد الفتح

الإســلامى، وإنْ بقى الصراع الطويل بينهــا وبين العربية، فى بعض المناطق، حتى أواخر القرن الســابع عشــر الميلادى، وانحرفت من جراء ذلك الآرامية، والعربية علي لسان أهلها. (هلال، ٢٠٠٤م: ١١٨)

ج – الساميَّة الجنوبية الغربية

وتضم اللغات الحبشــية (الأثيوبية)، والعربية. أمَّا الحبشــية، فهى لغة ذلك الشــعب الســامى، الذى خرج من جنوب الجزيرة العربية، فعَــبَرَ البحرَ الأحمر، عن طريق باب المندب إلى البلاد المقابلة لهم، وهى الحبشــة، أو إثيوبيا كما أطلق عليه الرحالة اليونان، واختلط بأهلها من الحاميين. ويرجح أنَّ هذه الموجة من الساميين هاجرت، قبل المسيح، بوقت طويل. (عبدالتواب، ١٩٩٩م: ٣٤)

وأهم أقســام اللغات الحبشــية الســامية، هى: الجعزية، والامهرية، ولهجات أخري متفرعة من الجعزية كاللهجة التيجيرينية، أو التيجيرية، وكذلك الجوراجية، ولهجة مدينة هَرَرْ المتفرعة من الامهرية. وأقدم نصوص هذه اللغة، يرجع إلى سنة ٣٥٠ م. (بروكلمان، ١٩٧٧م: ٣٢، ٣٤)

وهــذه الإلمامــة التاريخية بفروع اللغات الســامية، وبما ألت إليه تكشــف للقارىء الخارطــة التى اســتقر عليه حال هذه اللغات؛ إذ أنَّ بعضهــا إنْ لم يكن جلها، لم يعد أنْ يكون علي صورة لهجات متناثرة، فى بلدان أسيا وشمال افريقيا، قياساً بما تملكها العربية، من مساحة جغرافية، أو متكلمين.

أمَّا العربية، فتنقسم إلى قسمين هما: (العربية الجنوبية) و(العربية الشمالية).

فــالأولى: تعرف عنــد اللغويين العرب(باللغــة الحميرية)، أو اللغــة اليمنية القديمة. وموطنها اليمن، وجنوبى الجزيرة العربية، ولهجاتها هى: المعينية، والســبئية، والحضرمية وقــد وصلت إلينا منها الكثير من النقوش، والتى تتراوح مدتها بين القرن الثانى عشــر قبل الميلاد، والقرن الســادس الميــلادى. (عبد التواب، ١٩٩٩م: ٣٤؛ للتوســع: ظاظا، ١٩٩٩م: ١٠٦)

وتنقسم الثانية: وهى العربية الشمالية، إلى: العربية البائدة، والعربية الباقية.

فالعربية البائدة: هى عربية النقوش، التى دلت علي لهجات، كان يتكلم بها عشــائر

عربية، تسكن شمالى الحجاز، وقد عرفت هذه النقوش باسم النقوش اللحيانية، بمنطقة العلا (دَدَن)، فى النصوص القديمة، والثمودية فى أقليم مدائن صالح والجوف، والصفوية فى جبل الصفا، وقد عثر عليها فى شمالى الجزيرة العربية، وشبه جزيرة سيناء، وجنوبى دمشق. (بيطار، ۱۹۹۷م: ۹٤-۹٥)

ولتطرف هذه اللهجات فى الشمال، وشدة احتكاكها باللغات الآرامية، وبعدها عن المراكز العربية الأصلية بنجد والحجاز، قبل الإسلام، فقدت كثيراً من مقوماتها، وصبغت بالصبغة الآرامية. وقد بادت هذه اللهجات قبل الإسلام، ولم يصل منها إلا بعض النقوش.

ويري كثير من الدارسين، أنَّ النقوش المذكورة، ليست علي قدر كبير من الأهمية، لأنها ضحلة المادة ولاتشير إلى حقائق تاريخية واضحة، ولا تدل علي طوابع حضارية، فأكثرها يتناول أموراً شخصية كشراء جمل، ونزول فلان فى مكان ما.

ويؤكد العديد من الباحثين أنَّ أصحاب هذه النقوش، عرب ليس بينهم وبين القبائل العربية فروق كبيرة.

أمَّا لغة هذه النقوش، فحولها فروض متعدِّدة، فقد تكون عربية، أو كنعانية، أو آرامية، أو امتداداً للعربية الجنوبية، لكن الدراسات المبدئية الميدانية، للغة هذه النقوش، أثبتت أنَّها عربية أو قريبة من الأسلوب العربى.

وقد ظهر ذلک بعد حل رموز هذه النقوش بالعربية، فكان مفاد النقش الثمودى: «ذن-ل ق ض - ب ن ت -ع ب د - م ن ت، أو..ذين لقيض بنت عب- د مناة ...- هذا قبر لقيض بنت عبد مناة.» (بيطار، ۱۹۹۷م: ۹٤-۹٥)

ومفاد النقش الصفوى، بعد قراءة النقش من الشمال إلى اليمين: «ل ب ر د ب ن ا ص ل ح ب ن ا ب ح ر و ش ت ى هـ د ر و ذ ب ح ف هـ ل ت س ل م ، أى - لبُرد بن صالح بن أبجر وشتَّى فى هذا المكان وذبح ذبيحة. يالله أقدم لک السلام.» (المصدر نفسه)

إنَّ الخصائص اللغوية، وأسماء الآلهة والمعبودات المعروفة، لدي أصحاب هذه النقوش تدل علي أنَّ كتَّابها كانوا من البيئة اللغوية الجاهلية. (وافى، لاتا: ۹۳؛ قدورة، ۱۹۹۹م: ٦٦)

العربية الباقية

فهى لغة وسط الجزيرة العربية وشمالها، وهى التى تُسمَّي باللغة العربية الفصحي. وقد كتب لها الخلود بسبب نزول القرآن الكريم بها. فانتشرت لذلک انتشاراً واسعاً، کما لم تنتشر أى لغة أخري من لغات العالم. (عبدالتواب، ١٩٩٩م: ٣٤؛ بروکلمان، ١٩٧٧م: ٣٠)

«والعربية الباقية، هى التى ينصرف إليها كلمة العربية عند إطلاقها، والتى تستخدم اليوم فى البلاد العربية، لغة أدب وکتابة وتأليف. وقد نشأت هذه اللغة فى نجد والحجاز، ثم انتشرت فى کثير من المناطق التى کانت تشغلها من قبل أخواتها السامية والحامية، وانشعبت منها اللهجات التى يتکلم بها فى العصر الحديث، فى بلاد الحجاز ونجد واليمن، وما يتاخمها ويتصل بها من إمارات مستقلة، وفى فلسطين، والأردن، ولبنان، والعراق، والکويت، ومصر والسودان، وبلاد المغرب العربى، ومالطة. وقد وصلت إلينا العربية الباقية، عن طريق آثار العصر الجاهلى والقرآن والحديث، وآثار العصور الإسلامية المختلفة.» (وافى، لاتا: ١٠٣)

ولم يعثر العلماء علي آثار کافية توضح حالتها الأولى، فالنصوص الشعرية المنسوبة إلى الجاهلية، تقدم لنا العربية ناضجة، لا أثر فيها للبدايات الأولى، کما أنَّ هذه النصوص، تقدم لنا الفن الشعرى مکتملا، لا أثر فيه للمراحل التى قطعتها من قبل، فالمشکلة هى ضياع طفولتين معا، هما طفولة العربية، وطفولة الشعر الجاهلى. (قدورة، ١٩٩٩م: ٧٤)

امتياز العربية

يري علماء اللغة، أنَّ العربية توفر لها عاملان، لم يتوافر لغيرها من اللغات الساميَّة: أحدهما، أنَّها نشأت فى أقدم موطن للساميين، وثانيهما، أنَّ الموقع الجغرافى لهذا الموطن قد ساعد علي بقائها حيناً من الدهر متمتعة باستقلالها وعزلتها، وبقى فيها من تراث هذا اللسان ما تجرَّدَ منه أخواتها الساميَّة، فتميزت عنها بفضل ذلک بخواص کثيرة يرجع أهمها إلى الأمورالثلاثة الآتية:

١ –أنها أکثر أخواتها احتفاظاً بالأصوات الساميَّة. فقد اشتملت علي جميع الأصوات التى اشتملت عليها أخواتها الساميَّة، وزادت عليها بأصوات کثيرة لا وجود لها فى واحدة منها: الثاء والذال والغين والضاد والظاء. (أنيس، ١٩٧٣م: ٣٣)

٢ – أنها أوسع أخواتها جميعاً وأدقها فى قواعد النحو والصرف، فجميع القواعد التى تشـتمل عليها اللغات الساميَّة الأخري توجد لها نظائر فى العربية، بينما تشتمل العربية علي قواعد كثيرة لا نظير لها فى واحدة منها، أو توجد فى بعضها فى صورة بدائية ناقصة.

ومن أبرزها خاصية الإعراب، والذى اشـتهرت باسم قواعد الإعراب، والتى يتمثل معظمهـا فى أصـوات مد قصيرة تلحق أواخـر الكلمات؛ لتدلَّ علـي وظيفة الكلمة فى العبارة وعلاقتها بما عداها من عناصر الجملة. وهذا النظام لا يوجد له نظير فى أية أخت من أخواتها الساميَّة، اللهم إلا بعض آثار ضئيلة بدائية فى العبرية والآرامية والحبشية.

٣ – أنها أوسـع أخواتها ثروة فى أصول الكلمات والمفـردات، وتزيد عنها بأصول كثـيرة احتفظت بها من اللسـان السـامى الأول، ولا يوجد لها نظـير فى أى أخت من أخواتهـا؛ هذا إلى أنه قد تجمع فيها مـن المفردات فى مختلف أنواع الكلمة: اسمها وفعله وحرفها، ومن المترادفات فى الأسماء والصفات والأفعال، ما لم يجتمع مثله للغة سـاميَّة أخـري، بل يندر وجود مثله فى لغة من لغات العالم. فقد جمع للأسـد خمسـمائة اسـم، والثعبان مائتا اسـم وكتب الفيروزآبادى كتاباً فى أسماء العسـل فذكر له أكثر من ثمانين اسماً، وقرَّر أنه لم يستوعبها جميعها. (السيوطى، لاتا: ١/٣٢١– ٤٠٧،١٤٠)

ويري الفيروزآبادى أنه يوجد للسيف فى العربية ألف اسم علي الأقل، ويقرِّر آخرون أنه يوجد أكثر من أربعمائة اسم للداهية، ويوجد لكل من المطر، والريح، والنور، والظلام، والناقة، والحجر، والماء، والبئر، أسماء كثيرة، وكذلك الشأن فى الأوصاف: فلكل من الطويل، والقصير، والكريم، والبخيل، والشـجاع، والجبان، فى اللغة العربية عشرات من الألفاظ. (وافى، لاتا، بتصرف: ٢٠٤،١٦٢،١٥٥؛ وللتوسع: عبد التواب، ١٩٩٩م، الباب الرابع: ٢٢٧)

ثم إنَّ الأصل الواحد فى اللغة العربية، يتوارد عليه مئات من المعانى، بدون أن يقتضى ذلك أكثر من تغيرات فى حركات أصواته الأصلية نفسها، مع زيادة بعض أصوات عليها أو بدون زيادة، وإن كل ذلك يجرى وفق قواعد مضبوطة دقيقة نادرة الشـذوذ، نظير ما نـري فى الأصل (ع ل م): «عَلِم، عَلِمْنا ... أعلم، يَعلم، نَعلم ... اعْلمْ، اعلمى، عَلَّمَ، نُعلِّم، تَعلَّـم، تَعالم، عُلِـم، يُعلم، علِمٌ، عَلَمٌ، علامة، علوم، أعـلام، علامات، عالم، عليم، علَّامة، علماء، عالمون، متعلِّم، متعلَّم، مُعلِّم، معلوم، عالَم، عالَمون ...»

ولم تصل أية لغة سـامية أخري فى هذه الناحية إلى هـذا العدد من تنوع المفردات. ناهيک عما يتوارد علي الأصل الواحد، من معان أخري، عن طريق الاشـتقاق الكبير والأكبر. (أمين، ٢٠٠٠م: ١-٣)

يقـول وافى: «ولهـا خواص أخري كثيرة منها، طريقتهـا فى تصغير الأسماء، وقد ظهر للباحثين منذ أقدم عهدها وليست مستحدثة، بدليل وجودها فى أسماء الأمكنة والأشخاص: حنين، كليب ... ومن ذلک طريقة التعريف، فهى فى العربية (ال) فى أول الكلمة؛ وفى العبرية وفى بعض اللهجات العربية البائدة حرف (هـ) فى أول الكلمة؛ وكانت فى السبئية حرف نون فى آخر الكلمة، وفى السريانية حرف (آ) فى نهاية الكلمة. أمَّا الآشورية-البابلية والحبشية، فـلا أداة للتعريـف فيها مطلقاً. ومن خصائصها علامة الجمع: فهـى فى العبرية حرف(يم) للمذكر، والواو والتاء للمؤنث، وفى الآرامية حرفا (ين)، فى حين أنه فى العربية يسـتخدم للدلالـة علي جمع المذكر الواو والنون فى الرفـع، والياء والنون فى النصب والجر، فى آخر الكلمة، وللدلالة علي جمع المؤنث السالم الألف والتاء فى آخر الكلمة، وللدلالة عليهما معاً صيغ جمع التكسير، وهى كثيرة.» (فقه اللغة، لاتا: ١٧)

وأمَّا نظام جمع التكسـير، فلا يشـارک اللغة العربية فيه بين أخواتها السـامية إلا اليمنية القديمة والحبشـية، غير أنَّ العربية قد توسـعت فى استخدامه توسعاً كبيراً، حتى أصبح للمفرد الواحد فيها عدة جموع من هذا النوع. (نفسه: ١٦٢،٢١٠)

ولَّـا اكتملت لهـا بذلک أدوات التعبير عن أدق الأمور وألطف المعانى، شـرفها الله تعالى بتنزيل كتابه العزيز، وصانها من الزوال والاندثار، فتيسرت لها بسبب ذلک، سبل البقاء والانتشار، فى أرجاء واسعة من الأرض، مالم يتيسر لأية لغة من لغات البشر.

النتيجة

لقد بدا من الأسـطر السابقة أنَّ اللغات السـاميَّة التى أطلقت حديثاً، علي مجموعة من اللغات، كالعربية والعبرية والسـريانية، وغيرهـا، قد عرفها علماء العربية القدامي، وخبروا بعض خصائصها، والعلاقة بينها، ولم تكن كشـفاً جديـداً كلَّ الجدَّة. وإنَّما أراد المحدثون بهذه التسـمية، تمييـز اللغات التى تجمعها خصائص مشـتركة، عن غيرها من الفصائل اللغوية الأخري، كالهندية-الأوربية، والطورانية، والكوشية، وغيرها.

وتبيَّن من البحث:

- أنَّ الحديث عن تقسـيم الشـعوب السامية لم يصل إلى رأى قاطع وموقف حاسم، تطمئن إليه النفس، ويعول عليه الفكر.

- أنَّ أغلب اللغات الساميَّة، لم يعد لها وجود واقعى، لا علي صعيد المحادثة والكتابة والتأليف، ولا علي صعيد القراءة والمطالعة، فقد بادت وأصبحت أثراً بعد عين، إلا القليل منها، كالعبرية، والسريانية، والحبشية، والأخيرتان تستخدمان فى نطاق ضيق جداً.

- كمـا تبيَّن من خلال البحث، صلة اللغات السـاميَّة بالعربيـة، وعلاقة العربية بها، غير أنَّ العربية هى التى تسـتخدم اليوم علي نطاق واسـع، وتمتاز بخصائص كثيرة عن أخواتهـا السـاميَّة، فى الأصول والمفردات والقواعد، وبلغـت فى ذلک درجة عالية من السعة والاكتمال.

- وأنَّ اللغـة العربية، أكمل اللغات السـاميَّة وأنضجهـا، وأقدرها علي التعبير عن مختلف القضايا. ممَّا شـرفها بحمـل معجز كلام البارى -عزَّوجـَّل- وحباها باحتضان حديث نبيه الخاتم (ص)؛ كى تنال بذاک التشـريف، وهذا الحباء من السـعة والمكانة، والبقاء والانتشار، فى آفاق رحيبة من البسيطة، ما لم تنله لغة أخري، علي وجه الأرض. وحسبها ذلک علواً وقدراً وفخراً.

- و ممـا تقـدم يمكن أن نقرر بما لا شـک فيه ولا ريب أنَّ اختيـار العربية - أكمل اللغات- لإبلاغ أكمل الرسـالات لم يكن عملاً اعتباطياً، ودون قصد من لدن الشـارع الحكيـم. وعملية الإبـلاغ تتطلب الإبانة عـن المقاصد، ومن أهم وسـائل الإبانة لغة الخطاب. وفى العربية من مفردات الإبانة، وأساليبها، ما لم تملكها، بقية الساميَّات.

وحسـبنا مـا بيَّنا، وما نطقت به الآيات الآتية من كتـاب الله العزيز: ﴿إِنَّ فى ذلِکَ لَذِكْـري لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَي السَّـمْعَ وَ هُوَ شَـهيدٌ﴾ (ق: ٣٧) و﴿وَإِنَّـهُ لَتَنْزيلُ رَبِّ الْعالَمـَين نَزَلَ بِهِ الـرُّوحُ الْأَمينُ عَلي قَلْبِکَ لِتَكُـونَ مِنَ الْمُنْذِرينَ بِلِسـانٍ عَرَبِيٍّ مُبينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٢-١٩٥)

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

الأحمد، سامى سعيد. ١٩٧٥م. السومريون وتراثهم الحضارى. العراق: منشورات الجمعية التاريخية العراقية.

أمين، عبد الله. ٢٠٠٠م. الاشتقاق. ط٢. القاهرة: مكتبة الخانجى.

الأندلســى، ابن حزم، أبو محمد، على بن أحمد بن ســعيد. ١٣٤٥ق. الإحكام فى أصول الأحكام. بيروت: دار الآفاق الجديدة.

الأنطاكى، محمد. (لاتا). دراسات فى فقه اللغة. ط٤. بيروت: دار الشرق.

أنيس، إبراهيم. ١٩٧٣م. فى اللهجات العربية. ط٣. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

ـــــ ١٩٧٥م. من أسرار العربية. ط٥. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

بروكلمــان،كارل. ١٩٧٧م. فقه اللغات الســامية. ترجمة الدكتور رمضان عبــد التواب. الرياض: جامعة الرياض.

بيطار، إلياس. ١٩٩٧م. الأبجدية الفينيقية والخط العربى. ط١. دمشق: دار المجد.

الحموى الرومى، الشيخ الإمام شهاب الدين أبى عبدالله، ياقوت بن عبد الله. (لاتا). معجم البلدان. بيروت: دار صادر.

ربحى،كمال. ١٩٦٣م. دروس اللغة العبرية. ط٣. دمشق: مطبعة جامعة.

السامرائى، إبراهيم. ١٩٨٥م. دراسات فى اللغتين السريانية والعربية. ط١. بيروت: دار الجيل.

السيوطى، جلال الدين عبد الرحمن. (لاتا). المزهر فى علوم اللغة وأنواعها. تحقيق: محمدأحمد جاد المولى وزميليه. لامک: دار إحياء الكتب العربية.

الصالح، صبحى. ١٩٧٦م. دراسات فى فقه اللغة. ط٦. بيروت: دار العلم الملايين.

طليمات، غازى مختار. ٢٠٠٠م. فى علم اللغة. ط٢. دمشق: دار طلاس.

ظاظا، حسن. ١٩٩٠م. الساميون ولغاتهم. ط٢. دمشق: دار القلم.

عبدالتواب، رمضان. ١٩٩٩م. فصول فى فقه اللغة العربية. ط٦. القاهرة: مكتبة الخانجى.

عبّودى، هنرى س. ١٩٩١م. معجم الحضارات السامية. طرابلس، لبنان: جروس برس.

فرستيغ، كيس. ٢٠٠٣م. اللغة العربية. ط١. ترجمة: محمد الشرقاوى. القاهرة: المجلس الأعلي للثقافة.

فيشــر، فولفديتريش. ٢٠٠٢م. الأســاس فى فقه اللغة العربية. ط١. ترجمة: ســعيد حسن بحيرى. القاهرة: مؤسسة المختار.

قدورة، أحمد محمد. ١٩٩٩م. مدخل إلى فقه اللغة العربية. ط٢. دمشق: دار الفكر.

(الكتاب المقدس، أى كتب العهد القديم والعهد الجديد). ١٩٠٧م. بيروت: المطبعة الأمريكانية.

معن، مشــتاق عباس. ٢٠٠٢م. المعجم المفصل فى مصطلحات فقه اللغة المقارن. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية.

موســكاتى، ســبتينو. (لاتا). الحضارات السامية القديمة. ترجمة: الســيد يعقوب بكر. القاهرة: دار الكتاب العربى.

موسكاتى، سباتينو، وآخرون. ١٩٩٣م. مدخل إلى نحو اللغات السامية المقارن. ط١. ترجمة: مهدى المخزومى، وعبد الجبار المطلبى. بيروت: عالم الكتب.

نولدكه، تيودور. ١٩٦٤م. اللغات السامية. ترجمة: رمضان عبد التواب. القاهرة: مكتبة دار النهضة العربية.

هلال، عبد الغفار حامد. ٢٠٠٤م. العربية خصائصها وسماتها. ط٥. القاهرة: مكتبة وهبة.

وافى، على عبد الواحد. (لاتا). فقه اللغة. ط٦. القاهرة: دار نهضة مصر.

ولفنسون، أ (أبوذؤيب). (لاتا). تاريخ اللغات السامية. بيروت: دار القلم.